# والسلطان محمود

عبدالغني علي يحيى

في صباح أحد الايام، استعد «هياس»[1] للسفر وزيارة اصدقاء وأقارب له في عدد من القرى، ولما كان رفيقا وصديقا حميما «للسلطان محمود»[2] لا يتفارقان مثلما لا يفارق الظل صاحبه، فقد توجه الى قصر السلطان محمود طلبا للاستئذان وعلّ ان يغيب اياما ثم يعود اليه بعد ذلك، واذن له السلطان بالسفر وقد ارتسمت امارات الحزن على محياه. وحين تم لهياس ما اراد، خرج من القصر وسافر، وخلف المدينة وراءه وسار في العراء والبراري. وفي الطريق التقى برجل شيخ كان يعود الى قريته وصادف وان كان طريق «هياس» الى زيارة اقاربه واصدقائه يمر بقرية الرجل فتعارفا، وبعد قليل تجاذبا اطراف الحديث، وكان البادىء الى قطع حبل الصمت «هياس» اذ قال للشيخ:

- اتحملني أم أحملك؟

فأجابه الشيخ بغضب:

- ويحك أأنت مجنون، نحن كلانا سائران على الاقدام فلم احملك ولم تحملني في وقت تكاد قدماي ان تعجزا عن حملي، وقل الشيء ذاته عن قدميك!

فسكت «هياس» ولم ينبس بشيء.

واجتازا مسافة، ليست بقصيرة، من الطريق، وبلغا حقلا للقمح اخضر وجيد، فهتف الشيخ:

- ياله من حقل رائع!

قال هياس:

- شريطة ان لا يؤكل وهو اخضر!

فأجابه الشيخ بغضب وحنق:

- ويحك، كيف يؤكل حقل القمح وهو اخضر؟

ومن جديد لزم «هياس» جانب الصمت.

واستمرا في نهبهما للطريق واحس «هياس» بثقل الصمت السائد بينهما، وبالرغم من خشونة ردود الشيخ على اقواله، فأنه عمل على ازاحة ذلك الثقل، قال للشيخ:

- اذا وصلت بيتك فهل تقرع الباب على من فيه؟

ورد الشيخ بغضب وسخرية:

- يا لك من ساذج احمق، هل من المعقول ان يطرق المرء باب بيته نفسه وهو صاحبه؟

وللمرة الثالثة عاد «هياس» الى صمته.

وقطعا بعد ذلك القسم الاكبر من الطريق، وهنا احس الشيخ بأن الدور دوره لكسر جليد الصمت بينهما فألتفت الى «هياس» وقال:

- اذا وصلنا القرية فأين تذهب؟

قال «هياس» من غير ان يلتفت اليه:

- ان لم يكن الى بيتك، فبيت الله - المسجد - مأوى لكل

مسافر :

وهكذا كانا كقطبين متناقضين اثناء السفر . واخيرا وصلا الى القرية ، فودعه الشيخ ، وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وراحت رويدا رويدا تغرب بعيدا خلف الآفاق في المغرب وعرج «هياس» نحو مسجد القرية فدخله ، اما الرجل الشيخ فانه مضى الى بيته ، ولما وصله دفع الباب جانبا من غير ان يستأذن او يعلن عن وصوله ودخوله ، وحين أصبح داخل البيت رأى ابنته على حين غرة عارية تسبح ، فألتقت نظراتهما ، وبسرعة مضى الشيخ صوب مكان آخر في البيت وهو يقول مع نفسه : «لقد صدق الغريب الذي رافقني في السفر ، فها قد وقع ما كان يعنيه ، وعزم ان يحدث ابنته بعد انتهائها من الاغتسال بما جرى له مع هياس من محادثة ومحاورة . ولما خرجت ابنته من الحمام وبعد تبادل كلمات الترحيب والسلام ، قال الشيخ لابنته ، والتي كانت تتمتع بذكاء كبير ، حكايته التي جرت له مع «هياس» ولما انتهى من روايته ، قالت ابنته :

ـ أبتاه ، ان الذي رافقك في السفر من الرجال الاذكياء جدا والذين قلما يعثر المرء على مثيل له في البلاد ، فقوله «اتحملني أم أحملك» كان يعني بذلك اتتحدث وتطرح موضوعا أم اتحدث وأطرح موضوعا ففي الاسفار يستأنس رفاق الطريق بأحاديث بعضهم بعضا كي يخففوا من وطأة التعب والانهاك الذي يتولد من السفر ، وقوله عن الزرع الاخضر «شريطة ان لا يؤكل وهو اخضر» كان يعني بشرط ان لا يكون صاحبه قد باعه مسبقا وهو اخضر ، اما تساؤله بشأن طرقك لباب بيتك عند العودة اليه ، فهو في محله كذلك ، فها قد وقع ما وقع نتيجة عدم التقيد ببعض القواعد والآداب ، واخيرا قوله «ان لم يكن الى بيتك فالمسجد مأوى المسافر» عتاب ضمني لك ، اذ كان من الواجب ان تدعوه الى البيت .

وندم الرجل الشيخ على ما بدر منه من جفاء وخشونة تجاه رفيق سفره ، وسعى الى اصلاح ما افسده ، فقال لابنته :

ـ اني اريد ان أراه واعتذر له .

قالت ابنته :

ـ سأسعى جهدي الى ذلك .

قالت ذلك ، وقامت بارسال الطعام الى «هياس» وهو في المسجد ، فأرسلت اليه بواسطة اخت لها كانت صغيرة ثلاثين بيضة و ١٢ رغيفا من الخبز ، وفي الطريق الى المسجد ، ارادت البنت الصغيرة ان تتناول رغيفا مع بيضة ، فتناولتها قبل ان تصل الى المسجد ، ولما وصلت اليه ، دخلت على «هياس» وسلمت وقدمت اليه الخبز والبيض ، فأخذهما هياس ونظر اليهما ومع نفسه راح يعدهما ، ولما انتهى من العد قال للفتاة الصغيرة :

ـ اذهبي وقولي للتي ارسلتك اليّ : بأن الغريب النازل في المسجد يقرؤك السلام ويشكرك ويتساءل هل العام عندكم ١١ شهر والشهر ٢٩ يوم .

ورجعت البنت الصغيرة الى اختها الكبرى ، وقالت لها :

ـ اختاه ، قال الغريب عندما وقع نظره على البيض والخبز ، اذهبي وبلغي سلامي وشكري الى التي ارسلتك الي : هل العام عندكم ١١ شهر والشهر ٢٩ يوم .

قالت الاخت الكبرى :

ـ ويحك هل اكلت في الطريق رغيفا مع بيضة .

قالت البنت الصغيرة :

ـ نعم ، فلقد كنت جائعة .

واخبرت الابنة الكبرى أباها بما جرى بين الغريب واختها الصغرى ، ثم قالت :

ـ أبتاه ، اني أريد الزواج من هذا الرجل ، فهو الشخص الوحيد الذي يناسبني .

وفرح الشيخ برأي ابنته التي عرفت بالعناد والصلابة ورفضت عشرات من الرجال الذين تقدموا لطلب يدها . ودعا الشيخ هياسا الى زيارة بيته وذهب بنفسه الى المسجد ووجه الدعوة اليه ، ولما كانت ابنة الشيخ متقدمة في السن ، فأن «هياس» اول ما شاهدها قال :

ـ ان البيت على الرغم من تداعيه ثمين .

فردت عليه ابنة الشيخ :

ـ صحيح ما تقول ، غير ان العيب لم يكن فيه بل في المتقدمين الى شرائه .

* * *

وتم زواج «هياس» بأبنة الرجل الشيخ العاقلة الذكية ، وذاع خبر ذلك الزواج في ارجاء البلاد ومن الذين تناهى اليهم الخبر السلطان محمود نفسه ، ومما قالوه عن زوجة «هياس» : انها تتمتع بشخصية قوية وعقل نير للغاية اضافة الى الجمال والحسن ، فحسد السلطان من اعماقه هياسا ، وفكر شتى الفكر

في النيل من ذلك الزواج وهدم عش الزوجية الذي بناه «هياس» وزوجته الحكيمة ، وقال السلطان في ذات نفسه :

«سأبعث هياسا بمهمة تستغرق اسبوعا وخلال ذلك سأزور زوجته وانفذ ما أريد» .

ونفذ السلطان محمود خطة ابعاد «هياس» فأمر الاخير بالسفر الى بلد بعيد نزولا عند ارادة السلطان وسافر «هياس» وكله حزن وهم وغم ، فلقد توقع الشر من السلطان . وقال لزوجته قبل ان يشرع بالرحيل ، بأن لا تغادر البيت لحين عودته وان لا تفتح الباب لأي كان . وعندما خرج طلى مقدمة باب البيت بطبقة من القار تطبع فوقها آثار الاقدام الداخلة الى البيت . وعندما انجز ذلك رحل بوجه مقطب الجبين ، حزينا ، وفي سفره ، ابتعد عن المدينة ومضى صوب مكان بعيد .

عندما اوشك النهار على الانتهاء ، وأظلمت الدنيا انتهزها السلطان فرصة فتوجه الى بيت هياس ، فداس بقدميه في مقدمة الباب القار ثم طرق الباب ، وقالت زوجة «هياس» :

- من الطارق ؟

أجاب السلطان محمود :

- انا السلطان محمود ، جئت اتفقد احوال رعيتي ، فهلا فتحت الباب ؟

وفكرت المرأة برهة ورأت ان من غير اللائق ان تصد السلطان عن دخول البيت ، ففتحت الباب ورحبت به ، وتركته في غرفة الضيوف ثم غابت برهة وجلبت معها سبع بيضات مطهية وملونة بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق والاسود والابيض والبنفسجي ، فقدمتها الى السلطان وقالت له :

- ليتفضل مولاي السلطان بتناولها .

وتعجب السلطان من هذا العشاء الملون ، ولما فرغ من تناول البيضات كلها ، قالت زوجة هياس :

- هل تغير طعم البيضات من بيضة الى اخرى بتغير الالوان ؟

قال السلطان :

- كلا !

قالت زوجة «هياس» :

- وكذلك نساء الدنيا قاطبة ، والآن هلم مولاي السلطان واذهب الى بيتك او اي مكان تشاء !

وخجل السلطان من تصرفه وغادر البيت متأسفا نادما ، وتاب منذ ذلك اليوم وكف عن الاتيان بأي فعل قبيح .

بعد اسبوع من السفر ، عاد «هياس» الى المدينة وتوجه الى بيته ، ولما رأى آثار اقدام مطبوعة على القار الذي طليت به مقدمة الباب ، وحين دقق اكثر تعرف على تلك الآثار جيدا ، كانت آثار حذاء السلطان ! فلم يدخل البيت انما تراجع وهام على وجهه في شوارع وازقة المدينة وفي الاماسي كان يرقد في المساجد او تحت الجسور حزينا مهموما .

وبمرور الايام أثار اختفاء «هياس» وغيابه عن القصر والبيت اهتمام السلطان محمود من جهة واهتمام زوجته ، زوجة هياس ، من جهة ثانية ، وشرع السلطان ، عندما طال غياب هياس ، بالبحث الجدي عنه ، فبث جواسيسه في البلاد ، الى ان عثر عليه اخيرا ، ولما عثر عليه سأله السلطان عن سبب اختفائه وغيابه ، قال «هياس» بأنه اوجد العيش الرغيد في ظلال بستان جميل ، بيد ان الذي افسد عليه العيش هو تسلل اسد في الآونة الاخيرة الى البستان ، ولا سيما في غيابه !

قال ذلك وصمت ، وادرك السلطان ما يعنيه هياس فقال للاخير :

- نعم لقد دخل أسد بستانك حين كنت غائبا عنه ، غير ان الاسد عندما خرج من البستان خرج في هيئة ثعلب وبذنب طويل .

ولما علم «هياس» بوفاء واخلاص زوجته له رجع الى البيت وظل على صداقته مع السلطان يرافقه اينما ذهب وحل .

**هوامش :**

=======

**(1) و (2) «هياس والسلطان محمود» شخصيتان خرافيتان في الحكايات الشعبية الكردية ، وتمتاز شخصية «هياس» بالذكاء وحب العدالة والحق ويلقب عند الكرد بـ «هياسي درناس» .**

**والجدير بالذكر ان حكايات «هياس والسلطان محمود» ذات طابع فكاهي ومليئة بالحكم والنوادر ، وتتالف هذه الحكاية من حكايتين ترتبطان بوشائج قوية في الوقت ذاته . وفي التراث العربي ثمة نص يشبه الى حد بعيد نص الحكاية الاولى ، الا وهي حكاية «شن وطبقة» . وقد سمعت هذه الحكاية من اشخاص عديدين اخص بالذكر السيد صديق اسماعيل طه وهو من سكنة محلة تيراوه باربيل وآخرون غيره .**